



تمظهرات الأنساق الأركيوتاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة
"رائحة الذئب" لسامية بن دريس نموذجاً

Archaeohistorical Patterns Manifestations in the Contemporary Algerian
"Novel: 'The Scent of the Wolf' by Samia Ben Driss as a Case Study

خيرة نيجي¹، عدلان رويدي²

مخبر اللغة وتحليل الخطاب

¹ جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل (الجزائر) naidjikheira@univ-jijel.dz

² جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل (الجزائر) rouidiadlene@yahoo.fr

ملخص

تعد علاقة المبدع بنصه الإبداعي من أبرز الخطوات التي تدفعه لخلق نص يصور عمق العلاقة بين ما يفكر فيه وما تعكسه رؤياه داخل الخطاب الحكائي؛ بحيث تتجدد آلية التفاعل من خلال جدولة التفاعلات الحاصلة بين ثنايا النص؛ ذلك أن كل مقطع سواء أكان إشارياً أم غير إشاري يحيل في ثناياه إلى مختلف الشذرات الخطابية المؤسسة على خلفية ذاتية تمتد بفضل وعي كاتبها إلى ما هو أعمق في نفسية المتلقي؛ حيث يسعى إلى تمكين القارئ من صلب الموضوع وإشراكه في العملية التفاعلية المشحونة بهزات واعية ولا واعية تعكس حالة الذات المبدعة لحظة الكتابة، وعليه فإنّ اضمار الأنساق الثقافية في صورتها السردية والجمالية قد عملت على كشف المقموع داخل الرواية التاريخية من خلال طرح الأحداث وفق آليات متوترة عللت الحاجة السيكلوجية للشخصيات الروائية إلى مثل هذا النموذج، وعليه نجد الطرح التاريخي قد أخذ سيروية مغايرة تؤكدت بفضل جملة من التلاعبات النسقية. المضمرة والتي ستقوم الدراسة بالحفر في مكنوناتها انطلاقاً من إرتكازنا على ميكانزمات المقاربة الثقافية والحفرية كمنهج ثانوي مساعد.

كلمات مفتاحية: الرواية التاريخية، الأنساق الثقافية، التشذّر، الوعي واللاوعي، الألم، الأركيولوجيا، المرأة.

Summary:

The creator's relationship with his creative text is one of the most important steps that drives him to create a text that depicts/portrays the depth of the relationship between what he thinks about and what his vision reflects within the narrative discourse. So that the interaction mechanism is renewed through the cue of the interactions that take place between the folds of the text. This is because each stanza, whether indicative or not, refers within its folds to the various rhetorical fragments based on a subjective background that extends thanks to the awareness of its writer to what is deeper in the psyche of the recipient. It seeks to enable the reader to get to the heart of the matter and involve him in the interactive process charged with conscious and unconscious tremors that reflect the state of the creative self at the moment of writing. Accordingly, the inclusion of cultural systems in their narrative and aesthetic image has worked to reveal the oppressed within the historical novel by presenting the events according to tense mechanisms that explained the psychological need of the fictional characters for such a model. The study will delve into its contents based on our reliance on the mechanisms of the cultural and excavation approach as an auxiliary secondary curriculum.

Keywords: Historical novel, cultural systems, fragmentation, consciousness and unconsciousness, pain, archeology, woman.

1. مقدمة: تمكنت الرواية الجزائرية المعاصرة من تحقيق جملة من التجديدات التي مكنتها من خوض غمار التجريب في المجال الروائي على وجه التحديد، والذي أحدث بدوره نقلة نوعية سواء على مستوى الشكل أو المضمون، وبهذا نجد النص الروائي قد أخذ منحى مغايراً لطرح مختلف المواضيع التاريخية، السياسية، الثقافية، العلمية، النفسية وغيرها؛ حيث تعددت الأصوات والمستويات والعناصر السردية على اختلاف أنواعها وحتى العتبات، ليصبح كل تأنيث داخل الخطاب ميزة فنية رمزية تبعث على استفزاز القارئ واستدراجه لفك خيوط التيه السردية والوصول به إلى رؤية تأويلية جديدة مع جدة كل منهج وتأويل كل قارئ، وهذا ما زاد في غنى النصوص الروائية التي أصبحت أكثر قابلية وأكثر استيعاباً من الأنواع السردية الأخرى. من هنا نجد الرواية التاريخية تستدعي جملة من التغييرات القائمة على رفع المضمير ومساءلة المسكوت عنه، إذ جعلت من العناصر السردية أداة طيعة لتحريك مقاصد السرد المضمرة فصيرت من المكان شخصية قائمة على رفع تفاصيل الحدث، كما تبينت في الزمان استباق واسترجاع تحدت دوافع طرحه استناداً على وتيرة الذات السادرة ونفسياتها القائمة على وصل جماليات السرد بقصدية نفسية مضمرة، من هنا نجد في رواية "رائحة الذئب" لسامية بن دريس سعياً نحو تفكيك تاريخي استعادت على أثره الذاكرة التاريخية لشخصية "سارة بنجامين" كما انصاعت خلف تحقيق جملة من المتتاليات الحكائية ذات الصلة بتاريخ "كاف الحمام" كزاوية حُددت لتعميم الرؤية اتجاه المكان عامة، بناءً عليه: ما هي أهم الأنساق الثقافية التي عالجتها الروائية داخل رواية رائحة

تمظهرات الأنساق الأروحياتاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة، "رائحة الذئب" لسامية بن دريس، نموذجاً العدد الثالث عشر / العدد الثاني / جوان 2024

الذئب؟ ما هي أهم المضممرات التي احتواها العنوان في ظل وجود مركب نحوي تماثل لرائحة الذئب؟ وهل تحققت الدلالات المبدئية للعنوان داخل متن الرواية؟ وعليه نجد في آليات المقاربة الثقافية حاجة ملحة لرفع المضممر وتبيين مقاصد الخطاب المستترة خلف ظاهر الدلالة، متبعين في ذلك منهجية تحددت على إثرها الدراسة وفق ما يلي:

-عنوان "رائحة الذئب" بين جدلية الإظهار وجمالية الإضمار

-تمظهرات الأنساق المضمرة في رواية رائحة الذئب متبينين تحته مختلف الأنساق

كضدية المركز والهامش، الأبيض والأسود، الهوية الثقافية ..

-المرأة، الوطن والتاريخ

-المرأة والهامش.

1-عنوان "رائحة الذئب" بين جدلية الإظهار وجمالية الإضمار.

تفسر القيمة الدلالية التي أضحى يتمتع به العنوان في مختلف الفنون الأدبية الضرورة العلمية القائمة على تعليل اهتمام النقاد والقراء المتزايد على هاته العتبة * الرئيسية لولوج مختلف العوالم النصية، وعليه فإنَّ الحرص المتزايد على الأخيرة قد أفرز علما قائما بذاته ينادي بضرورة تأسيس حقلا يهتم بالمداخل النصية أيما اهتمام، ويعيرها رعاية توازي الرعاية التي أُفردت للمتون النصية تشريحا، قراءة ودلالة، إذ أضحى يمثل تنبؤ قرائي أولي لا يلبث أن يستتب كقراءة تأكيدية ضمن النص المكبر، وهذا مرهون بضرورة اختيار المنهج المناسب للنص المناسب أولاً، وقدرة المتلقي على تفكيك النصوص وإعادة تركيبها ضمن دلالات قرائية منطقية تزيد في تعزيزها ثقافة المتلقي وخبرته في الكشف والحفر في مغاليق النصوص الأدبية ثانياً، وهي اللحظة المبشرة بمعاينة القارئ لأبعاد النصوص الخفية، وبما أنَّ هذا الأخير يعد "بنية افتراضية تنطوي على فجوات أو فراغات vacios متعاشقة ومحفزة، فإن المتلقي يصبح أمام ما يسمى بـ آفاق التوقعات horizons of expectations¹ العاملة على خلق نص يوازي النص الأصلي، وهكذا" تؤدي الفجوات المحور الذي تدور حوله علاقة القارئ بالنص، ومن هنا تحرض فراغات النص المبنية القارئ على ممارسة عملية التخيل ضمن الشروط التي يحددها النص² والمنهج .

لقد كان للرواية "سامية بن دريس" قدرة فنية استهلاكية بعثت بموجها خاصية جمالية وأبعادا ضمنية عكست تنامي خفي للمضممرات المتفاعلة لأجل خلق جو يعكس العنف الممارس على الشخصيات الورقية، حيث لفت عليه جملة من الدلالات الانزياحية

وهي على وعي بتنامي احياءاتها الدالة على طغيان العنف والألم كانعكاس وصمته اللحظة التاريخية القائمة على تمثيل الاستعمار وتبين انعكاساته على الذات ما بعد الكولونيالية .
تتموج الدلالة ضمن عنوان النص الروائي "رائحة الذئب" وفق أسئلة لا متناهية تفرض جملة من الاستفهامات غير القابلة للحصر، الجاعلة من المتلقي محورا لتوليدها مع ضرورة توليد دلالات ضمنية تظهر بفضل تنقيب هذا الأخير في مكنوناتها الدفينة بين مختلف العتبات التي عمدت الروائية فيها إلى خلق جو من التفاعل غير المرئي بين ثنايا الهيكلية المشكلة لسطح غلاف الرواية ؛ حيث أضحي كل لون أو خط أو رمز يشير إلى العلاقة التفاعلية العاملة على بعث جو من التلاحم لإفشاء سر من أسرار النص المشفر، وبما أن "الدلالة النسقية هي قيمة نحوية ونصوصية مخبوءة في المضمير النصي في الخطاب اللغوي"³ فإن الناظر في عنوان "رائحة الذئب" يجد أنه قد ورد جملة اسمية من خبر ومضاف إليه والمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هذه، إلا أن هذا التركيب لم يكن اعتباريا وإنما على قصد واع بضرورة دمج الموضوع بالهيكلية التي تؤطره؛ حيث دلت الجملة الاسمية على الثبات والاستقرار وهذا ما عكسها التناسق الحاصل مع الموضوع وهيكله، كإشارة أولية توجب على القارئ أن يتوقف عند بابها، مفسرا العلاقة الرابطة بين النص وعنوانه القائم في حقيقية الأمر على مبدئية إلزامية تحيل في بواطنها إلى وجود عامل مشترك بين النص والشخصيات التي تؤنثته، وتأسيسا على الدلالة الضمنية المذكورة سالفاً، واستكمالا للكشف عن الخيوط المتواصلة لتشكيل عتبة النص الروائي الذي بين أيدينا نورد في استرسال أهم الأنساق المضمرة الواردة ضمن عنوان رائحة الذئب:

تأسست مجموع الأنساق الثقافية المضمرة في عنوان "رائحة الذئب" تحت واجب التلاحم من أجل تحقيق قيمة سردية تؤكد على الحضور الدلالي المكثف في حدود كلمة أو كلمتين، والتي كان من شأنها أن تعمق الدلالة، وعليه فقد كان للمفتتح السردى بعدا واعيا أكدت من خلاله الروائية الحمولة الثقافية التي يتمتع بها "الذئب" سواء في نسقه الديني، الأدبي، الاجتماعي، النفسي أو السياسي المضمّر، إذ حاز هذا الأخير عند العرب مكانة مرموقة ؛ حيث جعلوه محورا ترميزيا للعديد من القضايا الانسانية المضمرة، وبالتالي فإن الناظر في العنوان الذي بين أيدينا يجد أنه قد ورد بصيغة الأفراد لا الجمع وهو ما يدل على أول صفة تميزت بها الذئاب والقائلة بتفضيلها للوحدة والاتكال على الذات في الحصول على قوتها نظرا لقساوة الطبيعة في الجزيرة العربية⁴ وهو ما يؤكد قدرتها في التحدي والتصدي لشتى

**تمظهرات الأنساق الأركيوتاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة، "رائحة الذئب" لسامية
بن حريس، نموذجاً** العدد الثالث عشر / العدد الثاني / جوان 2024

أنواع القساوة، حتى وإن اجتمع مع بني فصيلته لا يكون ذلك إلا لذوي القربي في حدود ثلاثة إلى أربعة ذئاب لا غير⁵، ومما لا شك فيه أنَّ البشرية قد ألحقت بالذئب صفة الخداع كإلزامه وصفية تدل على بطشه وتحايله في الحصول على ما يريد أن يظفر به، ويعتبر فيأي "مكان تقريبا رمز الشراسة، والخبث انه يفتك يمزق، يفترس، فالخوف منه عام، وله مكانة في الشعور الجماعي وعندما يتمازق الناس فيما بينهم، ولو ظاهريا، يرد التمثل بالحكمة اللاتينية: الانسان ذئب على الانسان⁶ هذا وقد حاز الذئب فيالثقافة الشعبية على اهتمام مميز لدرجة جعلت الاغريقيينيعتقدوا أنَّ كلمة ذئب مرادفة لمعنى بقي صامتا وحجة ذلك أن الانسان إذا رأى الذئبأول مرة في حياته بقي صامتا مادام حيا؛ أي يصاب بالخرس⁷، بناء عليه تتحد الدلالة النسقية للعنوان مع الدلالة الصورية للغلاف الجامع بين الأسود والأبيض سعيا لتحقيق دلالة نسقية متضادة تعكس حفياتها تصادم الخطيئة والغفران، الظلم والتسامح، الرذيلة والفضيلة، كلها في سمفونية سردية تبين مبدئياتها العلاقة القائمة بين شذرات العنوان وبؤرة الحدث الروائي العام تسليما بمقولة "الشذرات علامة عرس الفكرة"⁸ التي أعطت لنا تصورا مبدئيا حول ما يخفيه النص المكبر.

بالنظر إلى هاته الصفات التي وجهت إلى الذئب نجد أنفسنا حيال مفاتيح ثقافية مضمرة تؤكدشيفراتها أن عنوان النص قد كان مشتركا وصفيا لأنساق متضادة قائمة بين مختلف الشخصيات المؤثثة للعمل السردى، أولها:

- عكس الوعي السياسي المتماهي مع سياسة الغدر التي انتهجها الفرنسيين لتُمويه عن نواياهم الداخلية .

- الوعي الديني؛ حيث فرض حضوره من خلال التشابك الذي انعقد بين قصة سيدنا يوسف والحاق تهمة الغدر بالذئاب رغم براءتها من دمه الشريف، وهو ما يتمثل نسقيا مع براءة نواره، وعودة سارة بن جامين كعودة يوسف إلى أبيه بعد سنوات من العذاب والقهر والبعد.

- النفسي والاجتماعي الدال على تكاتف الجزائريين في الاطاحة بالمستعمر الفرنسي، والشجاعة التي تحلو بها فترة التمشيط، والصبر المتجذر في نفوسهم خاصة أثناء التعذيب المختصر في صبر "رابح" أمام تعذيب "رومان وفرانسوا". "تقول الساردة" على كل حال لم يكن رابح وحده من ذاق ذاك العذاب ولا وحده من رأى تلك الوحوش، فقد شهدت عليها الأرض والسماء، الأشجار والحجارة، الغابة المجاورة مازالت سوداء وأنين أشجار الزيتون والسرور مازال يبلغ مسامعه والنار تطلق فيسيقانها"⁹...

لكي لا نتجاوز حدود التأويل المسبق عن أوانه بتعسف، يمكننا أن نطرح كأول خطوة تحفيرة في قراءتنا للعنوان ظاهرة اشتباك الأنساق الثقافية داخل العنوان العامل على تأكيد ليونة سردية تتجاوز التقليدي إلى ما هو جديد ضمن أليات السرد الروائي والمتمثلة في عدم امتثال العنوان لحدث معين، بل ارتباطه بعدة أحداث والتي سبق أن أرشنا إليها أعلاه، إلا أننا هنا نرجح اتصال العنوان بالقضية المضمرة داخل المتن الحكائي والمتمثلة في إثارة قضية اثبات النسب التي كانت فيها سارة بن جامين الشخصية المثقفة واحدة ممن أجهضتهم الحرب وسط تساؤلات ذاتية تثير سؤال الهوية والتاريخ، ومنه ينبثق سؤال كم من سارة خلفتها الحرب ودست في جيوب التاريخ؟ إستنادًا إلى القول القائل: "إن في أوقات الحرب، تصبح المرأة منطقة ألغام، منطقة خطرة، يمكنها الانفجار في أي لحظة 10".، وبالتالي فإن التّطعيم المعنوي الذي ألحقته الكاتبة بـ "سارة بن جامين" قد كان كفيلاً بأن يشكل حولها خيوطاً معرفية تحيل إلى رائحة نسبها الأصلي المنفرد بوالدها في لحظة غدر أردتها وحيدة كوحدة الدّئاب المجتمعة بأصولها مهما كانت الظروف.

من هنا فقد "كان محكوما على مثقف المغرب العربي أن يلاحظ تحوله المؤلم، مدرّكاً بمرارة كيف أن (أناه) تتحول شيئاً فشيئاً إلى (آخر)، وكيف أن الهوة السحيقة التي يعانها تتسع يومياً، ليصبح من الصعب تلحيمها، وكيف يصبح أجنبياً عنجماعته، ودينه، وتقاليده، وكذا أجنبياً عن نفسه 11"، ولهذا نجدها شخصية تائهة فيالبحث عن ذاتيتها داخل أنها العاكسة للآخر: وهي فلسفة ذاتية مجدها الرواية المعاصرة كخطوة رئيسية في خلق تعالق منطقي يفسر علاقة الأنا بالهو، وكيف انتقلت الشخصية الروائية من الوظيفة الكلاسيكية إلى الوظيفة المعاصرة القائلة بوجوب تمثيل الذات ورفع خباياها إلى الأفق كي تتمثل أمام القارئ الذي يرى فيها تشابكات نفسية تعكس في مجملها ما تخفيه أناه، وعليه فإن "إمكانية التأويل وفتح أفاق عالم النص عبر تجويزات اللغة وتعبيرها، لا يتمان إلا عندما يتم القبض على الكائن الذي يراد إسكانه عوالم اللغة 12" التي تمنحه مفاتيح أولية تمكنه من استنطاق شيفرات النص المتلاحمة فيما بينها من شخصيات، زمان، مكان، حدث وغيره من العناصر المؤثثة له.

2- تمظهرات الأنساق المضمرة في رواية رائحة الذئب:

ترتسم الملامح الشّذرية للغة الراوي انطلاقاً من الصّراع الحاد الذي أفردت له السّاردة حيزاً حكاياً متمثلاً في التّشابك المنطقي القائم بين الوعي والذاكرة، فهما أولى الإشارات الدّالة على بدء العملية السّردية التي تفضي إلى تضخمات معرفية في نفسية المتحدثة، العاملة على بعث ما يختلج في الصّدر من تداعيات حرة لا بد لها أن تتّضح ضمن ما هو آتٍ، والدّالة في

صلبها على فلسفة وصل الجسد المبتور بالروح المتعلقة بفضاء غير فضائها الأصلي، إنَّه القلق المعرفي والاضطراب المحتم الذي يساير العملية السردية إلى آخر مطاف لها.

تتوجس الساردة "سارة بنجامين" الانسلاخ الذي اعترى جسدها وروحها في لحظة تموجت على إثرها الحياة بين موقف المد والجزر، إنَّها اللحظة التي غرست في داخلها توتر نفسي حاد صرخ بضرورة ملأ الأنا بعاداتها، دينها، وتقاليدها، والفطرة الأولى التي خُلِقَتْ لأجلها، إنها الهوية المقدسة التي مررت بها الروائية لغزاً وطنياً نام في الضفة الغربية، لكن الأعماق المتوهجة في ذات المواطنة الفرنسية ذات الدِّماء الجزائرية "سارة بن جامين" جعلتها توقد نار الانتماء في غفلة من الزمن، مثَّل فيها الموت بنوعيه المجازي والحقيقي موقفاً فاصلاً من خلال إبرازه لثنائيتين متضادتين تمثلاً في:

- صراع الذات بينالفن والوطنية ؛ حيث أثارا سؤال الحرية مقابل الوطنية وهذا ما نلمسه في القول الآتي " : أفرك يدي وألقي نظرة على الجدار، لا ظلال على الجدار، الجدار خاو من الذكريات ومن الألحان ومن الكلمات ومن الصور. كانت ظلالتي على الجدار تفوح بذكرى اللحن المفقود، أما في هذا المساء- والساعة تواجهني بعناد- فقد وضعت يدها في يده ورحلت ... اسمعي يا سارة: بين الضفتين، ضفة الخيال وضفة الواقع هوة سحيقة، وعليك أن تبقي رجلك هنا لا هناك"¹³...تقوم وحدة الرأْي والتَّمسك بعادة تقديس الهوية المصاحبة لحضور الوعي التاريخي استناداً إلى ما جاء في القول سالف الذِّكر، والمؤكد أنَّ الحرية الدَّاتية جزءاً لا يتجزأ من الحرية الجمعية والوطنية، فبعدما طغنت البطلة في هويتها هاهي رسالة أمها المُخْتَلَقَة تفصح عما عتمه الزَّمن؛ حيث سعت إلى بعث رغبة تساؤلية في نفسية البطلة تؤكد بها سؤال الأنا المنشطرة بين هويتين غربية فرنسية والأخرى عربية جزائرية .

تتضح معالم الرؤية السردية المحبوكَة في هذا المقطع من خلال التَّلَاقح المتشابك بين الزمنية والوهم الظِّلِّي الذي يعكس في حقيقته قدرة الزمن في تمويه الحقائق ودسها؛ بحيث استطاعت الكاتبة أنْ تؤثت جواً تخيلياً في ذاتية الساردة متمثلاً في العلاقة الثلاثية التي أقامتْها بينها وبين الجدار والظلال كلهم في سمفونية زمنية شبه مغيبة أفصحت عنها في قولها-الساعة تواجهني بعناد- وهي لحظة الاسقاط* الدَّالة على استعارة مادية لمقتضى الحالة النَّفسية التي تعيشها الساردة لأنَّ الزَّمن أساس المحنة النَّفسية التي اعترت الرِّواية وتغييها للزَّمن نفسه إثباتاً لحضوره القوي، وعليه فإنَّ الجدار والظِّل قد أعربا عن اختفاء

المكافئ النسقي بين طياتهما، مشكلاً بذلك العلاقة القائمة بين الجسد والتاريخ دالاً عليهما ما اكتنزه المقطع من ذكريات دفينية بين هذا وذاك إلى درجة ترتفع على اثرها الحركة السردية لتلامس دلالة باطنية تتأكد بها تجليات الأنا المتكلمة في صورة غير مرئية عكسها خواء الجدار من الذكريات ومن الظلال الساعية إلى توصيل السارد بماضيه العتيق، والعامل على إثارة قضية الحضور الغربي وصورته داخل الرواية العربية، والتي طالما تطرقت لها العديد من الروايات الحديثة والمعاصرة في سبيل إقامة اتجاهات متضادة تمضي نحو توصيل القارئ بصورة المستعمر والمستعمر في وجهتيه سواء السلبية أو الإيجابية، وهذا ما سعت "سامية بن دريس" لتحقيقه، إذ أقامت صورة الذات والأخروفي سياق ثقافي واحد بشخصيتين متعددتي الوجهات - صورة جوزيف رومان، وصورة سارة بنجامين- وهي ظاهرة لم ترد اعتباراً بل لتبيان الاختلاف متعدد الصور للمستعمر الواحد وتعبير أدق عكست عبر فجوات الذات صورة الأنا للآخر واستشكلت قضية التضاد التي عالجتها الأنساق الثقافية كواحدة من بين مصطلحات النقد الثقافي وحاجة من حاجيات الفرد ما بعد الاستقلال.

استكمالاً لما ألمحنا إليه هنا فإننا نجد أنفسنا حيال قضية نسقية مدغمة داخل القضية الظاهرة المشار إليها أعلاه تعكس في جوهرها قضية مضادة تفضي إلى استحالة التمازج الدُموي بين الجنس الفرنسي والجزائري، كيف لا وقد كان موقف الرواية "سارة بن جامين" رافضاً لشتى أنواع الانتساب الفرنسي نظراً للمرجعيات التي خلّفتها مذ أن كانت ماءً داخل رحم "نوار" الذي تقبلها مرغماً، إلى أن نبذتها العادات والتقاليد خارج رحم "نوار" وخارج الوطن بأكمله، ذلك أن العاهة التاريخية ظلّت تلاحقها كظلال خاوية وسط الوجود؛ بحيث نصّبها كشاهدة حية على ما ارتكبه الفرنسيين في الحرب تقول في اعتراف تضميني لها "إذن أنا سارة بن جامين الشاهدة على الجريمة، التي لا يقدر أحد على محو آثارها، إنني -ببساطة- مثل زهرة الحقيقة قد تغمس لسنوات في رماد النسيان، لكنها لا تلبث أن ترفع رأسها من قلب الظلام فقط من أجل أن تزهر... صوتي في نهر التاريخ المتدفق كالعواء في بؤرة الضمير الإنساني... لعلي ضحية من ضحايا الحرب عن جدارة"¹⁴. على وقع هذا المثال تطفوا الذبذبات الواعية واللاواعية في ذاتية الساردة التي تأكّد لها عنف الوجود الإنساني في فترة تاريخية رسمية لدى الجزائريين والعاملة على ابراز نسق مضمّر تمثل في - الثقافة -.

في سياق متصل مع الطرح سالف الذكر تلمح الروائية في تمريرة غير مرئية إلى العنصرية الممارسة من طرف الفرنسيين ونظرتهم العرقية إلى ذوي البشرة السوداء، كله في سمفونية سردية تغلف عمق الفكرة ببساطة الحيلة التي تفتنت إليها المرأة الجزائرية لتفادي الجشع الجنسي الصادر من قبل المستعمر، والمضمر في القول التالي: "وعلى الرغم من أنها اجتهدت مثل نساء القرية في صبغ وجهها ووجه ابنتها بالدخان الأسود من بقايا رماد الطاجين"¹⁵....، تتخطى الدلالة اللونية حاجز التمييز العنصري إلى توليف ثقافة مغايرة تنفرد عن الأخرى وتتمايز عنها بشكل مباشر، وهذا راجع إلى طبيعة التكوين الثقافي المضمر في ذاتية الفرد البشري، وما يُغرس في وعيه ويثبت في لا وعيه كضرورة حتمية تنفرد بها الوراثة الطبيعية للعادات والتقاليد الخاصة بكل مجتمع، وكما "يتميز المجتمع بتقاليد وفنه وثقافته فإنه يميل إلى منح لون بشرته قيمة تحاكي قيمته السياسية الثقافية في نفسه، ويكون لونه هو اللون الأرق بما أن أصحاب هذا اللون هم الأرق - حسب الوهم الثقافي أو حسب إيهام الذات بذلك"¹⁶ - البعد الانفرادي الذي تسموها لذات عن الغير.

بناءً عليه فإنّ الخطة البديهية التي تفتنت إليه المرأة الجزائرية فترة الاستعمار لتفادي القمع الجنسي قد أكدت مبدئياً الصورة الوحشية للمستعمر الفرنسي وهي صورة متضاربة في العمق مستقرة في الأفق، كيف لا وقد رفعت بكل وعي سردي رؤية ذاتية عكست عبرها:

- حمولة ثقافية مضمرة تعكس في حفرياتنا نظرة الغربي إلى ذوي البشرة السوداء، وهي عادة متجذرة في فكره الثقافي الاستعلائي "فقد تشكل جزء كبير من صورة البيض عن أنفسهم كرد فعل لما يعتقدون أنّ السود ليسوا عليه، فإذا كان البيض يفهمون أنهم الأسمى فكراً وثقافياً، فحينئذ تدل صورة السود على الجهل والبربرية، وكان من الضروري الحفاظ على هذه الأفكار، بغض النظر عن عدم دقتها الشديدة، وكانت إحدى الطرق هي خلق سياق لا يكون فيه للسود خيار سوى العمل طبقاً لتوقعات البيض"¹⁷ "الذين فرضوا سيطرتهم من خلال الاعتداءات الجنسية الممارسة على نسوة القرية الممثلين للجهل، الرضوخ، الاستسلام والضعف أمام قوة الآخر وجبروته وهي دلالة كان من شأنها أن تحدث زعزعة في الدلالة الظاهرة لتغرس بين شقوقها ثقافة مضمرة ترفع معنى الصورة السردية إلى معادل نسقي متضاد بين: نسق السمو الفكري الثقافي ونسق الجهل والبربرية في نظر الآخر الغربي، مؤكدين ذلك على لسان الراوية: "في الأيام التالية فتح الموضوع للنقاش منقبل الشهود والمختصين، مثلاً كتب البروفيسور موريس، قال إن بشرتهم سوداء، وإنهم أقوام نزحو

من الجنوب، كاحتمال مبدئي ورد ذكر أدغال إفريقيا، وربما الصحراء الكبرى، وأكد أنه إذا تم القبض على إحداها فسيكون من السهل علينا دراسة خصائصها الجينية، لعلها تمثل شكلا من أشكال التطور في السلم الطبيعي.¹⁸ وعليه تطفوا ضدية المركز والهامش كردة فعل لازمة داخل الرواية تبينا للقمع الممارس على ذاتية المجتمع المستعمر.

تتواصل الحركة السردية في التشابك من خلال جملة التوترات القائمة على خلق نوع من التوتر العام الذي يربط القارئ بالنص، وهي حيرة انطلق تأثيرها بدءًا من رحلة البحث عن الذات التي مثلتها الشخصية الساردة -سارة بن جامين-؛ بحيث أفردت إلى الأنا قيمة سردية تفوق قيم العناصر السردية الأخرى، ولكن هذا لا يجعلها محط نقص بقدر ما يعلمها، ذلك أن الشخصية قد مثلت عوالم ذاتية انفردت بخصوصية فلسفية جعلتها تتقدم باقي العناصر السردية لا غير، ساهمت في اقامة تصورات نسقية مضمرة تعكس صراع الأنا بالآخر، نسق الفحولة والأنوثة، المركز والهامش... وغيرها من التصادمات الثقافية المضمرة.

تكملة لما أشرنا إليه سالفًا يتضح طرحنا لجدلية الأنا بداءً من الانطلاقة الرسمية لعملية الخطاب الروائي الذي مكّن الساردة من طرح خلجاتها النفسية والمكبلة بسلطة غير مرئية كشفت في عمقها عن نسق التشنر الذاتي؛ حيث أفضت إلى تخصيب سردي متبادل مع باقي العناصر السردية، فكانت الذات الساردة تواجه الآخر بطرق ملتوية تمثلت في توصيف وحشية المستعمر عن طريق شخصية نورة، والبشاعة الجنسية التي تعرضت لها من قبل المستعمر، وكأن نورة قد أخفت بذلك نسقًا مضمرًا ولدت من خلاله معادلاً نسقيًا للنهب الوطني والاستعمار الفرنسي، على اعتبار أن الدفاع عن أرض الوطن يتعادل نسقيًا في الثقافة الشعبية عامة مع طقوس الدفاع عن شرف المرأة، لذلك كثيرًا ما تذهب الروايات الجزائرية المعاصرة في تفكيكها للتاريخ المؤسس إلى الموازنة بين المرأة والوطن، واعتبار المرأة رمزًا مضمرًا يختزل نسق الشرف، الدفاع، الاغتصاب، الأمومة، الحنان.... بل مثلت هوية سردية *** جمعت في بواطنها أغلب ما تختصبه الأمة سواءً في جانبها التاريخي، أو الاعتقادي، أو الثقافي بكل تعدداته، ومن هنا فقد تراوحت الأنساق الثقافية للمرأة بين:

أ- المرأة، الوطن والتاريخ:

استطاعت المرأة بفضل ممارساتها الحياتية المتعددة أن تدخل حيز الكتابة بكل أصنافها؛ حيث أوكلت إلى ذاتها ضرورة التعبير عن مختلف القضايا شأنها شأن الرجل، ومما زاد في تعزيز قوتها في منافسة الفعل واقع الوطن المغربي والجزائري المحتل على وجه

**تمظهرات الأنساق الأركيوتاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة، "رائحة الذئب" لسامية
بن حريس، نموذجاً** **العدد الثالث عشر / العدد الثاني / جوان 2024**

الخصوص، فقد مكّنها هذا الوضع من الوقوف إلى جانب الذكر سواءً بالقلم أو كونها موضوعاً لهذا القلم، وعليه فإن خوض المرأة منافسة البقاء صامدة قد أكد وجودها المتميز في الساحة الأدبية كونها قد خاضت بذلك خطوة نوعية استطاعت بفضلها أن تعكس صوراً شتى لمناحي الحياة فكانت أمّاً، وطناً، ثورة تأبى الخضوع، شرفاً متعالياً، رمزاً للنماء والوجود، الإعمار.... إلخ.

مقابل هذا الطّرح المبدئي نجد المرأة في رواية "رائحة الذئب" قد خاضت رحلة البحث عن الذات الفردية مقابل تحقيق الهوية الجماعية، على اعتبار أنّ صوت الأنثى قد كبل من طرف المستعمر الفرنسي الذي رأى فيها ملامح الإشعاع والنّماء وروح الشباب الطافح، فكان له أن أحمّد نار الطموح التي كانت تشع من عينيها انطلاقاً من انتهاك شرفها، وهو الدور الذي مثلته "نؤارة" كمعادل موضوعي لأرض الوطن المغتصبة، وفي مقابل هذا الاسقاط تنشأ العلاقة الحميمية بين المرأة والحرف الذي بؤأها أن تعكس بفضل تركيبها الداخلية تركيبة الأم الوطن، وعليه فإن استحضار البعد التاريخي للوطن المغتصب قد مورست عليه لعبة الخفاء المضمرة في شخصية "نؤارة" بطريقة درامية جعلت السرد أكثر تعقيداً متجلياً في المقطع القائل...: "انتبه إليها، كان شبابها طافحاً مع بدايات الإشارات الأولى للبلوغ، كانت فورة الطبيعة تتجاوز كل حيلها....عليه أن يقدم البرهان ليس لرؤسائه ولكن لنفسه، لا شيء يدفع العربي للجنون كالشرف، عليه أن يسلط جنوده على هذا القطيع ليشفي غليله، الجنود متعبون... سأنال من الفلاحة سأنال منهم وسأذل نساءهم....كلهم جائعون وأجساد النساء هي وقود الحرب منذ أن خلقت الدنيا، ومنذ سألت أول قطرة دم على وجه الأرض"¹⁹ "...يأتي المقطع مشبعاً بعنف جسدي وآخر رمزي ضمني يتوسط الحقيقة التاريخية لفضاعة الاستعمار الفرنسي في أرض الوطن، وهو ما دفع بالقارئ إلى استنطاق شيفراته الملتوية خلف التوثيق السردى ذو الطبيعة الحكائية المألوفة والعاملة على تحقيق نسقية مضمرة يتأكد فيها الحضور الأنثوي المكبل بسلطة الذكورة؛ حيث استطاعت المرأة أن تلعب أدواراً مختلفة مكنتها من مس قضايا الثورة بمختلف أبعادها، فكانت رمزاً للعنف الجسدي والروحي، رمزاً للشرف، والوطن.

ب- المرأة ونسق الهامش:

يتأكد التهميش الوجودي للمرأة على مر العصور بدءاً من العنف والتضليل الموجه لذاتها [خاصة قبل مجيء الإسلام] وهو الأمر الذي أدى بها إلى السعي الدؤوب نحو تحقيق

ذاتها بشتى الطرق فكان لها تحقيقا لذلك بشروط فحولية كبلت بعض الشيء من وصولها المبكر لمبتغاها، وهذا ما أكدته "سامية بن دريس" في بعض مقاطعها الروائية انطلاقا من رحلة "سارة بن جامين" حول تحقيق كينونتها التي كانت بمثابة حرب ذاتية حول اثبات الهوية الفردية والجماعية في الوقت ذاته، والذي أثار في أبعاده الداخلية سؤالاً جوهريا يفضي بالقول: كم من سارة خلفتها الحرب ولا زالت مهمشة؟ وعليه تتضح الرؤية حول التهميش الممارس على المرأة الجزائرية والعربية عامة فترة الحروب، فقد كانت موردا لاستنزاف الطاقة الجنسية والجسدية على حد سواء تقول الساردة: "وما ذا تفعل فتاة أمام جدار من الدبابات والأسلحة وتحت أزيز الرصاص والطيارة الصفراء، وهكذا استقرت تلك السهام الطائشة للجنود في منطقتها الحساسة منطقة المرأة الخطرة الواعدة بالويلات... في أوقات الحرب، تصبح المرأة منطقة الغام، منطقة خطيرة يمكنها الانفجار في أي لحظة"²⁰.

كثيرا ما تتطرق الروائية إلى التأكيد على الجانب الجسدي للمرأة دون التطرق إلى الروحاني تسكن هذا الأخير.... [كلهم جائعون وأجساد النساء هي وقود الحرب] [إنها القوانين، قواني الجسد ونظمه، ذلك أن الدم لا يتوانى في إفشاء سر السلالات]²¹ [وكان المرأة قد أصبحت مركزا للشهوة والعار بكل أنواعه و"جسد محل للإشباع، وطرف لا قيمة له إلا بمقدار ما يوفره من المتعة والاستجابة لرغبة الذكر"²² الذي جعل من نورة وسارة موطننا للعار التي خلفتها الحرب الفرنسية في الجزائر، في مقابل إثارة سؤال الهوية الفردية والجماعية المغيبة.

خاتمة: تكملة لتبيان النتائج المتوصل إليها من خلال مقاربتنا الثقافية للأنساق التاريخية المضمرة في رواية "رائحة الذئب لسامية بن دريس" توصلنا إلى:

- استطاعت الرواية المعاصرة أنتفكك التاريخ المؤسس استنادا إلى عملية الاضمار التي أخفت في طياتها العديد من الأبعاد التاريخية، العاملة على دمج الأنا بالآخر وتمثيل مختلف القضايا تمثيلا رمزيا يُسْتَشْفُ بالحفر المعمق داخل الخطاب.
- تنوعت الأنساق الثقافية داخل المتن الحكائي استجابة لرغبة الشخصيات في النهوض باللاوعي الذي تخمر في ذاتيتها؛ حيث سعت حثيثا إلى تحقيق الهوية الذاتية كضرورة حتمية لتحقيق الهوية الجماعية.

**تمظهرات الأنساق الأركيوتاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة، "رائحة الذئب" لسامية
بن حريس، نموذجاً _____ المجلد الثالث عشر / العدد الثاني / جوان 2024**

- لقد كان للمرأة دورا كبيرا في تحقيق الانسجام النسقي المضمّر للتاريخ المؤسس، والذي تبين على إثره التظاهرات المختلفة للأنساق التاريخية المتأرجحة بين التقديس والتدنيس كثنائية فرضها التأويل المنفتح على اختلاف الرؤى المعرفية في تحليلنا لهذا للخطاب.

- تمكنت الساردة من بلورة الحدثي هاته الرواية وفق رؤية تاريخية استطاعت بفضلها أن تطرح بعض القضايا التاريخية كقضية التمييز العنصري، والثقافة بطريقتي سردية تعالقي فيها الواقع بالخيال.

- تمكنت الساردة من خلق جو سردي تناظرت فيه مخلف الأنساق السردية رفعا للمضمّر وخلقاً لجماليات فنية تمثلت في: ثنائية الاستدكار والنسيان، قضية المركز والهامش، الأنا منم منظور الآخر، تفكيك المعطيات التاريخية وفق أسلوب حكائي تخيلي جعلت فيه الذات محورا للصراع الحدثي.

- يمكن للبحث أن يفتح على عديد الدراسات كون الرواية تزخر بمختلف الفنيات التي تمكن الباحث دراستها من جانب:

أ- جماليات الألم وما ينطوي تحته من عنف لغوي، الرؤية المأساوية ...

ب- النسق المضاد/النسوي وجماليات تفكيك التاريخ...

ت- صورة الآخر من منظور الذات واستدعاء المسكوت عنه داخل الرواية التاريخية... وغيرها من الدراسات.

مراجع البحث وإحالاته:

*- العتبات: تعددت التسميات حول مصطلح العتبات وتنوعت أشكالها إذ نجدها ترد تحت اسم "" النص المصاحب، النص الموازي، خطاب المقدمة، المكملات... والمخصصة في أنها مجموع النصوص التي تخفر المتن، وتحيط به من عناوين وأسماء المؤلفين، والإهداءات، والمقدمات، والخاتمات، والفهارس، والحواشي، وكل البيانات التي توجد على صفحة غلاف الكتاب وعلى ظهره "... فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ط01، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص223.

1- يوسف عليّ، جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجا، ط01، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان- 2004، ص45.

2- م. ن، ص. ن.

3- عبد الله الغدامي وعبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم أدبي، ط01، دار الفكر، دمشق، 2003، ص27.

4- ينظر: فضل بن عمار العوماري، الذئب في الأدب العربي، د. ط، مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، الرياض، 2012، ص31.

- 5- ينظر: م. ن، ص 33.
- 6- فيليب سيرنج، الرموز في الفن-الأديان-الحياة، تر: عبد الهادي عباس، ط 01، دار دمشق، سورية - دمشق — 1992، ص 110.
- 7- ينظر: فيليب سيرنج، الرموز في الفن-الأديان-الحياة، ص 111.
- 8 -عبد الغفار مكاوي، ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر، د. ط، مؤسسة هنداي، المملكة المتحدة، جزء 01، 2017، ص 179 .
- 9- سامية بن دريس، رائحة الذئب، ص 157.
- 10- سامية بن دريس، رائحة الذئب، ص 130.
- 11 dans le roman p150 l alientation عن: سعيد علوش، الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، ط 01، دار الكلمة للنشر، بيروت -لبنان 1981 -، ص 96.
- 12- عمارة ناصر، اللغة والتأويل مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الاسلامي، ط 01، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص 188.
- 13- سامية بن دريس، رائحة الذئب، ط 01، دار ميم للنشر، الجزائر، 2015، ص 07، 09.
- ***-تنويه: تمت الاستعانة بهذا المصطلح من كتاب وليام راي، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، تر: يوثيل يوسف عزيز، ط 01، دار المامون للترجمة والنشر، بغداد-الجمهورية العراقية -1987، ص 38. ذلك لوجود صلة بين ما نود الإشارة إليه ضمن تحليلنا للمقطع وبين ما تحمله اللفظة من دلالة .
- 14 -سامية بندريس، رائحة الذئب، ص 11، 69.
- 15- م. ن، ص 127.
- 16 - نادر كاظم، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي، ط 0، ط 01، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2044، ص 11.
- 17 -إيليس كاشمور، صناعة الثقافة السوداء، تر: أحمد محمود، د. ط، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، 272.
- 18 -سامية بن دريس، رائحة الذئب، ص 52.
- ***-الهوية السردية: تمت الاستعانة بهذا المصطلح بغية توصيل الفكرة في أوضح صورة لها؛ وتعني " أن تتقمص الدور وتتصدر المشهد، وتفرض حضورك على الآخرين، وأن تمثل بالمعنى النيابي، وهو أن تتحمل مسؤولية النطق بالنيابة عن الآخرين الممثلين - "...نادر كاظم، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي، ص 16.
- 19 - سامية بن دريس، رائحة الذئب، ص 128-129.
- 20- سامية بن دريس، رائحة الذئب، ص 130.
- 21- م. ن، 131.
- 22- قدور رحمان، الخطاب الشعري في الفتوحات المكينة -التجربة، البنية، التلقي- د. ط، الدار الوطنية للكتاب، 2009، ص 55.